أهل الشام

ريبورتاج

فضح الحبُّ سرّ الصينيين الذي ظل مخبّأً طيلة ثلاثة آلاف عام، بشأن دودة القز. تقول الأسطورة إن أميرة صينية أحبّت أميراً هندياً، وكانت تستعد للزواج به. سرقت الأميرة العروس كمية من بيوض دودة القز، ووضعتها في كيس قطني خبّأته في شعرها الطويل، وحملته إلى بلاد زوجها. هكذا، بدأ السر بالانتشار، إلى أن وصل حوض البحر الأبيض المتوسط، وسوريا على وجه الخصوص، في العام 555 ميلادي. اليوم، يبدو أن مهنة تربية دودة القز، لنسج خيوط الحرير الطبيعية، مهددة بالاندثار في سوريا

قرية دير ماما حرير دودة القز مهدّد بالاندثار

في مطلع تسعينيات القرن الماضي وصل إنتاج القرية من الشرانق إلى 11 طناً (الأخبار)

طارق ميري

«أولادي يقولون لي: ما فائدة هذا المتحف؟ لو وضعنا فيه ماعزاً وشربنا من حليبه، أليس أفضل من ذلك؟». بهذه الكلمات بدأ صاحب متحف الحرير الطبيعي، في قرية دير ماما، محمد سعود، وأحد مربّي دودة القز، حديثه عن هذه المهنة. تعتبر دير ماما (التابعة لمنطقة مصياف، في محافظة حماة)، أحد المراكز الأساسية لتربية دودة القز، وصناعة الحرير الطبيعي في سوريا. مع بداية تسعينيات

> دأب أولاد «شيخ كار حرفة الحرير» على لومه بسبب تمسّكه بالمهنة

القرن الماضي، وصل إنتاج القرية من الشرانق التي تستخدم في صناعة الحرير إلى 11 طناً، واستمر الوضع كذلك حتى بداية الحرب في البلاد، لينخفض الرقم انخفاضاً كبيراً.

«بذور الحرب» الرديئة

تمر عملية تربية دودة القز وإنتاج الحرير الطبيعي بمراحل عديدة، في خلال الفترة الممتدة بين الأول من نيسان ومنتصف أيار، وفقاً لما تشرحه المربية سعاد حسن، لـ«الأخبار». توضح حسن أن دورة الإنتاج تبدأ بـ«البذرة»، لتفقس البيوض خلال أسبوع، ثم «الخضراء»، حين يصبح لون الدودة أخضر، إثر التغذي على ورق التوت. تلي ذلك مرحلة «النقشة» التي يكبر فيها حجم الدودة، بعد أن تتغذى على التوت أكثر، ثم «الحمراء»، ويصل فيها طول الدودة إلى حوالى 8 سنتم، وقطر جسمها إلى 1سنتم. بعدها، يكتمل نمو الدودة، لتتوقف عن الأكل، وتستعد لنسج الغلاف الخارجي للشرنقة، على عيدان من نبات الشيح، معدّة مسبّقاً لهذا الأمر، وتُكوِّن بذلك الشرنقة. تضيف حسن «بعد أيام تنتهي الدودة من غزل الشرنقة، ثم تتحول إلى فراشة، وتبدأ مرحلةُ سحب الخيوط، عبر الحرفيّ الذي يدعى: الحلّال». بعدها «توضع الخيوط على النول، لغزلها ونسجها، من أجل الحصول على منتجات الحرير، مثل الشالات والألبسة بأنواعها المختلفة». في ما مضى، كانت البذور تأتي من فرنسا وإيطاليا واليابان والصين إلى دير ماما، إلا أن هذا الأمر تغيّر مع بداية الحرب، ما أدى إلى توقف العمل في هذه المهنة نهائياً مدة خمس سنوات.

إثر مطالبات كثيرة من الأهالي، دارت عجلة تربية دودة القز من جديد في القرية، بعد أن قدمت وزارة الزراعة السورية بذاراً محلية مستولدةً في منطقة «وادي قنديل» في ريف اللاذقية. لكن محمد سعود يصف تلك البذور بـ«الرديئة». ويوضح أن «علبة البذور المحلية تعطي فقط خمسة عشر كيلو غراماً من الشرانق، إلا أنها تكون غير سليمة، شأنها في ذلك شأن الخيوط الناتجة». ويضيف «أما علبة البذور المستوردة، فتعطي خمسةً وخمسين كيلوغراماً، بنوعية جيدة».

مهنة مُهدّدة

يشير محمد سعود، إلى أن «مهنة تربية دودة القز باتت اليوم مهددة بالانقراض، بعد مئات السنين على وجودها في القرية». ويضيف «يعمل في المهنة اليوم بضع عائلات فقط»، ويعزو ذلك إلى «ضعف المردود المادي، ورداءة البذور، وتراجع عدد أشجار التوت التي تتغذى عليها الديدان، إضافة إلى عدم وجود أي أنشطة لتسويق المنتج، وغياب الدعم من الحكومة السورية.

سعود، وهو حاصل على شهادة «شيخ كار حرفة الحرير» (من اتحاد الحرفييّن السوريّين)، يقول «لو لم أكن أحب هذه المهنة، وأعمل فيها منذ خمسين سنة، لما حافظت عليها». ويضيف «للحرير جذور في حياتنا. تشرّبت المهنة منذ صغري، وما زلنا نحتفظ بها. جميع أولادي تعلموا المهنة بكل تفاصيلها». رغم ذلك، دأب أولاد الرجل على لومه بسبب تمسّكه بالمهنة، والمتحف، وهم يرون في استغلال المكان، لغايات أخرى، أمراً ضرورياً. يرفض المربّي كلام أبنائه، رغم تكدّس منتجات الحرير في متحفه، من دون أن تباع. انخفضت نسبة المبيعات بشدة، في ظل الظروف الأمنية والاقتصادية التي فرضتها الحرب، فضلاً عن انقطاع توافد السياح الذين كانوا يأتون عن طريق معارف المربين، ويشترون الحرير «رغبة في دعم العاملين فيه».

«دعم حكومي» بالكلام فقط!

قام مسؤولون كثر بزيارات متفرقة إلى قرية دير ماما، ومتحف الحرير الطبيعي فيها. كان من بينهم وزير الزراعة، ووزير السياحة، وغيرهما. يقول بعض المربين إنّ المسؤولين حرصوا على تشجيعهم ـ كلاميّاً ـ على مواصلة العمل في هذه المهنة. لكن «من دون تقديم الدعم اللازم للنهوض بها». في الوقت الراهن، يُشترى الكيلو الواحد من الشرانق بـ2000 ليرة سوريّة (ما يعادل دولارين تقريباً). ويعدّ هذا الثمن بخساً، مقارنةً بالجهود التي يبذلها المربّون، وبالأوضاع المعيشية في سوريا. شارك المربّون في «معرض دمشق الدولي» بنسختيه الأخيرتين، من دون أن يحققوا فائدة مباشرة، إذ «لم يشترِ أحد منتجات الحرير». يكرّر المربّون مطلباً أساسيّاً، وهو «وجوب تنبّه الحكومة السورية، والمنظمات الدولية، إلى ضرورة دعم هذه المهنة، بغية الحفاظ عليها من الاندثار، قبل أن يفوت الأوان». من بين العوامل الواجب توفيرها، للحفاظ على المهنة، يبرز «وجود بذار ذات جودة عالية، وإيجاد أنشطة لتسويق منتجات الحرير، ومساعدة المربين على تصريف بضائعهم بمبالغ مناسبة».

وجوه

أبو علي: إسكافي من زمن «التواصي»

لم يرث المهنة التي بدأ العمل بها قبل أكثر من 70 عاماً عن والده، أو جده. المرة الأولى التي تعرف فيها على هذه «المصلحة» كانت في سنته السادسة. وقتذاك، اصطحبه أخوه معه لتعلمها في السوق، ليدخل عالم تصليح الأحذية صناعتها، وتكون نقطة انطلاق المشوار المهني لأحمد طعمة، المستمر حتى اليوم، والذي يراه الناس ناجحاً لأنه أحبّ مهنته.

الإسكافي الثمانيني أبو علي، الذي يقصده زبائنه من مناطق دمشقية عديدة، يجد أن امتلاك مفاتيح هذه المهنة بحاجة إلى الإصرار، والصبر، وكثير من التعب، وخاصة في السنين الخوالي، عندما كانت مهمة الحذّاء تفصيل الأحذية (التواصي)، لا تصليحها فقط.

يتحدث طعمة عن تلك المرحلة، ويخبرنا أنه وأخاه كانا يفصلان الأحذية بواسطة قوالب خشبية، يُشدّ عليها الجلد، ويُخاط بالنعل المقصوص، وذلك للزبائن أصحاب الملاءة المالية، القادرين على دفع ثمن حذاء 15 ليرة سورية. يقول «أما اليوم لم يعد أحد يعتمد على التفصيل، بل أصبح الكثيرون يصلحون الحذاء أكثر من مرة، بسبب الأوضاع المادية السيئة للأغلبية».

يحفظ العم طعمة (مواليد 1937) تواريخ حياته المفصلية عن ظهر قلب؛ ففي عام 1950 افتتح أخوه المحل في المزة ـ شيخ سعد في العاصمة دمشق، وكان في تلك الفترة يعمل ويدرس في آن واحد، حتى حصل على الشهادة الابتدائية عام 1954. وفي عام 1985 اشترى ماكينة جديدة، يعمل عليها حتى اليوم بنظام عمل ثابت: من الساعة التاسعة صباحاً حتى السابعة مساءً، يومياً ما عدا يوم الجمعة. «هذا عمل إن لم يعد يُغني، فهو يستر على الأقل» يقول.

يرى أبو علي أن هذه المهنة «لا تندثر»، فالحاجة إليها مستمرة، وخاصة مع وجود من يقدمها بأسعار رمزية. يقول «أن تدفع 100 أو 200 ليرة سورية لتنتعل حذاءك من جديد، أفضل من دفع 5000 ليرة ـ على الأقل ـ لشراء حذاء بنوعية سيئة، سيحتاج إلى تصليح بعد أشهر».

رغم دخول آلات متطورة إلى عمل تصليح الأحذية، فإن النتائج التي تعطيها الماكينة اليدوية في بعض الحالات، لا تجدها في الآلة الكهربائية. ومع ذلك، أدخل طعمة الآلة الكهربائية إلى محله، وتعلم ابنه علي العمل عليها، ليرث مهنة والده، رغم انتقاد شباب جيله له. يقول الشاب «سأستمر في هذه المصلحة، ليس فقط لأنني ورثتها من أبي، بل لأنني أحببتها وأبدعت فيها، ولا أمانع تعليمها لأولادي في المستقبل».

تصميم: سنان عيسى

لقطة

حلّاق دمشق العازف على الكمان

بديع صنيج

قريباً من باب شرقي، وتحديداً مقابل «مطرانية السريان الكاثوليك» شرق العاصمة دمشق، ثمة دكّان لحلّاق اسمه مهيب أبو نمر. يجذبك الرجل بطيبة ملامحه، وترحابه النابع من القلب بلا ادِّعاء. ما إن تجلس في انتظار دورك، حتى تلفتك علبتا كمان بجوارك، وتدفعك إلى تأمُّل يديه، وهو يقصّ شعر أحدهم، أو يُشَذِّب لحية آخر، فتشعر بوجود شيء مختلف، ولا سيما أنه «حلّاقٌ قليل الكلام»، فتبتهج بينك وبين نفسك قائلاً: «إنها أعجوبة».

ينهي الحلاق عمله مع أحد زبائنه، ثم يفتح إحدى العُلَبتين. يحمل الكمان، يشدّ وتر قوسه، وبعد دوزنة الأوتار، تنطلق ارتجالات ساحرة على مقام النهوند. يتوقف بعدها عن العزف قليلاً، ليبدأ على مقام البيات، وتنويعات على الهُزام بلحنٍ «بليغيّ» وأغنية «إنت فين والحب فين». ندندن برفقة كمان الحلّاق، ما كتبه عبد الوهاب محمد: «حب إيه اللي إنت جاي تقول عليه...». يمر في بالنا شهاب أحمد بن بدير، المعروف بـ«البديري الحلاق»، ومذكراته المعنونة بـ«حوادث دمشق اليومية» التي كتبها بين عامي 1741-1762. نسأل مهيب: «البديري كان يجمع القصّ بمعنييه: الحلاقة، والسرد،

كأنَّك تُشبهه؟»، يجيب وابتسامته على وجهه: «نوعاً ما، لكنني بدل أن أسرد بالكتابة، أعزف على كماني». ويضيف: «شغفي متوزِّع ما بين الحلاقة والعزف. بين المِقصّ وقوس الكمان، تتأقلم أصابع يدي اليمنى بتلقائية، بينما أصابع اليسرى تفعل الشيء ذاته بين زند الكمان ورأس الزبون».

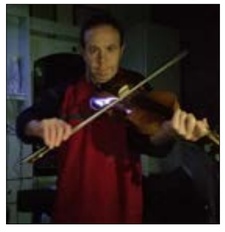

نخبره بأن البديري، قارَبَ جداً فن المقامة الأدبي في كتابته الاستثنائية، ثم نسأل عن المقام الأقرب إلى روحه، فيقول: «لكل ساعةٍ ملائكتها، التي تفرض عليَّ مقامات عشقها، لكنني في الغالب كلثوميّ الهوى. أكثر ما أعزفه هو أغاني الست، التي تعلَّمتُ معظمها على يدي أستاذي ميشيل عوض، وليس هناك أوسع من طيف المقامات في أغنيات أم كلثوم التي لحّن لها الكبار». نُمازحه بالقول: «على كرسي البديري تساوى الأكابر والأعيان، والأشراف وأصحاب المراتب الاجتماعية والدينية والعسكرية، مع أصاغر القوم، كما يروي في مذكراته»، فيقاطِعنا ضاحكاً: «هذا أكثر من طبيعي، فالكل سواسية أمام من يمسك بيده موسى الحلاقة».